تحديد المصطلحات

يشيع فى مجال الدراسات اللغوية مصطلحان ، مستخدمان لتسمية هذا العلم ، هما (علم اللغة) ، و (فقه اللغة) .

وقد غلبت التسمية الأولى حديثا على فروع هذه الدراسات فى مقابل المصطلح الأجنبى **Linguistique** الذى تنضوى تحته عدة مصطلحات دالة على المواد التى يدرسها المتخصصون فيها . كعلم الأصوات العام **phonétique** ، وعلم الأصوات التشكيلى **phonologie** وعلم الدلالة **Sémantique** ... الخ ..

وقد كانت التسمية الثانية (فقه اللغة) أكثر شيوعا فى مجال الدراسات العربية القديمة ، ووضع لها الأوربيون مقابلا هو **philologie** ، وأصل الكلمة مركب من **philos** ومن معانيها الحب أو الصداقة ، ومن **Logos** بمعنى الكلام ، والمعنى الكلى هو : حب الكلام أو اللغة الذى يدفع إلى فقهها أو علمها .

ولاشك أن كلا المصطلحين قديم الاستعمال فى الثقافة العربية ، وهو مسجل فى عناوين الكتب التى ألفها العلماء من السلف ، فقد ألف أبو الحسين أحمد بن فارس كتابه : (الصاحبى فى فقه اللغة ، وسنن العرب فى كلامها) ، كما ألف أبو منصور الثعالبى كتابه : (فقه اللغة) ، وهما متعاصران تقريبا ، إذ أن ابن فارس توفى عام (٣٨٥ هـ) ، وتوفى الثعالبى بعده عام (٤٢٩ هـ) فمن المحتمل أنه أدرك حياة ابن فارس ، وكتاباهما يتناولان فى مجموعهما الكثير من قضايا اللغة العربية وخصائصها ، وإن غلب على ثانيهما الطابع المعجمى ، إذ هو معدود من معاجم المعانى ، ولكن مضمونهما لايكاد يختلف عن مضمون كتاب جلال الدين السيوطى (المزهر فى علوم اللغة وأنواعها)

وإن كان أكثر منهما استيعابا، على ما اشتهر به السيوطى من جمع كتب السابقين، والأخذ عنها، وله فى هذا الباب فضل الإبقاء على كتب فقدت أصولها، وبقيت روايتها عنده.

أى: أن القدماء من علماء العربية لم يكونوا يفرقون فى الاستعمال بين مفهوم العبارتين: (علم اللغة، وفقه اللغة)[1].

بيد أن المحدثين من علماء اللغة العرب يفضلون استعمال التعبير (علم اللغة) بناء على ماتلقوه من ثقافة غربية تنزع إلى تحديد المصطلحات، وبقى مصطلح (فقه اللغة) ذا دلالة على مفهوم محدود ضيق.

ذلك أن موقف الأوربيين من ترجمة مصطلح (فقه اللغة) بكلمة phiollögie - يدل على أنهم قد فهموه فهما خاصا، فالكلمة إغريقية الأصل، وهى تعنى على الترتيب:

١ — معرفة الأدب الجميل ودراسة نصوصه.

٢ — دراسة لغة معينة بالتحليل النقدى لنصوصها، وقد عرف الرومان والجرمان فى القرن التاسع عشر شهادات فى النحو والفيلولوجيا.

٣ — الدراسة الشكلية للنصوص فى المخطوطات المختلفة التى انتهت إلينا.

والمفهوم الثانى قريب من مراد المصطلح فى الثقافة العربية.

---

(١) لاشك أن الكتب التى تناولت قضايا اللغة بالمفهوم الشامل أكثر من هذا، وفى مقدمتها كتب سيبويه، وأبى على الفارسى، وابن جنى، ومؤلف المعاجم، والمؤلفين فى المعرب والأصيل من كلام العرب، كالجواليقى والشهاب الخفاجى وغيرهما، وسيأتى حديث عن بعض ذلك.

أما المعانى التى حددوها لمصطلح **Linguistique** فهى على الترتيب التاريخى :

١ — الدراسة المقارنة والتاريخية للغات ، كالنحو المقارن، والفيلولوجيا المقارنة .

٢ — العلم الحديث الذى موضوعه اللغة فى ذاتها ، ولذاتها (وهو مفهوم فرديناند دوسوسور) ، وينضوى تحته كل المصطلحات المعروفة ، وهى : علم اللهجات **Dialectologie** ، وعلم الاشتقاق التاريخى **Etymologie** ، والنحو **Grammaire** ، والمعاجم **Lexicologie** ، والصرف **Morphologie** ، والأعلام **Onomastique** ، والفيلولوجيا **Philologis** ، وعلم الأصوات العام **Phonétique**، وعلم الأصوات التشكيلى **Phonologie**، وعلم الدلالة **Sémntique** وعلم الأسلوب **Stylistique** ، وأسماء البلدان **Toponymie** [1].

وهناك علم اللغة التاريخى **Limguistique historique** ، وعلم اللغة الوصفى **descriptive** ، وعلم اللغة العام **Générale** (الذى يعنى دراسة الشروط العامة للحركة والتطور فى اللغات) وعلم اللغة الوظيفى - **Foucti** onnelle ، والبنيوى **Structurale** ، والتطبيقى **Apptiquée** ، (الذى يشمل الترجمة الفورية ، والتربية) ، والمقارن **Comparative** .

وفى هذا يقول اللغوى ماريو باى : « إن موضوع فقه اللغة **Philology** لايختص بدراسة اللغات فقط ، ولكن يجمع إلى ذلك دراسة تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبى للغات موضوع الدراسة ، أما علم اللغة

---

(1) Dictionnaire de la langne Française,: par paul Robert, 1972. Linguistique, et philologie.

Linguistic ـ فيركز على اللغة نفسها، ولكن مع إشارات عابرة ـ أحيانا ـ إلى قيم ثقافية وتاريخية. ويولى علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة ، وإن كان يوجه كذلك للغة المكتوبة شيئا من الاهتمام[1] » .

وإذن ، فإن هناك فرقا كبيراً بين مفهوم المصطلحين فى الثقافة القديمة والحديثة ، وهو فرق ينبغى أن يراعى عند استعمال أيهما ، نظراً إلى أن أغلب ما بأيدينا الآن من الكتب التى تحمل عنوان (فقه اللغة ، أو علم اللغة) إنما يجرى على الاستعمال الحديث ، وهو اعتبار العنوان الأول خاصا بدراسة العربية وخصائصها، على حين يستخدم الثانى استخداما شاملا فى كل ما يتصل بالعربية وغيرها من اللغات ، من فصيلتها أو غيرها .

هذا الموقف خير ـ فيما نرى ـ من النزوع إلى تبسيط الأمور ، وتعميم مصطلح (فقه اللغة) بحيث يصدق على كل فروع الدراسات اللغوية ، استنادا إلى أن (كل علم لشىء فهو فقه) ، على ماذهب إليه الأستاذ الدكتور صبحى الصالح[2]، فليس من الممكن التغاضى عن إشعاع الكلمة حين تستقر فى اصطلاح أهل الفن ، والعلم فى عصرنا تراث إنسانى ، بعد أن حطم الحواجز القومية والإقليمية، فصار مايتردد فى نصف الكرة الغربى موجوداً فى نصفها الشرقى ، عبر المسافات ، وقديما قيل : (لامُشَاحَّةَ فى الاصطلاح) . أى : أن من واجب الباحث أن يحدد مدلول مايستخدم من المصطلحات عند بداية بحثه ، وليس لأحد أن ينازعه هذا الحق العلمى .

وعلى أى حال فإن موضوع هذه الدراسة هو (اللغة) كما نعرفها ، سواء أكانت نطقا فى صورة (كلام) ، أم كتابة فى هيئة (نصوص) ، وقد تكون

---

(١) أسس علم اللغة ـ تأليف ماريوباى ـ ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر ـ ص ٣٥ .

(٢) دراسات فى فقه اللغة ـ ص ٥ : وأنظر أيضا: الوجيز فى فقه اللغة ـ تأليف الأستاذ محمد الأنطاكى ـ نشر مكتبة الشهداء بسوريا ـ ص ٧ ومابعدها .

هذه النصوص حديثة تقترب أو تتطابق فى الذهن صورتها النطقية مع صورتها المكتوبة ، بحكم ممارستنا لكلا المستويين ، وقد تكون النصوص قديمة بحيث لا نملك حولها إلا أحكاما منقولة فى التراث ،وآثارا منقوشة أو مسجلة فى الوثائق ،ومع ذلك ينضوى هذا كله تحت مفهوم (اللغة) التى هى موضوع هذا العلم ، والتى نرجو أن نلقى عليها فى دراستنا هذه بعض الأضواء .

على أن من الضرورى ابتداء أن ندرك وجود مسافة فاصلة بين الأصوات المنطوقة وبين ما يمثلها من رموز مكتوبة ، وهى مسافة تعترف بها كل اللغات الإنسانية ، ولاسيما اللغات ذات التاريخ الحضارى ، ولسوف يتضح ذلك خلال ما نقدمه من دراسة حول اللغة المنطوقة وعلاقتها باللغة المكتوبة إن شاء الله .

نظرة على تاريخ علم اللغة

أولا : عند العرب قديماً وحديثاً :

وإذا كان المراد بعلم اللغة ما يتناول الدراسات اللغوية فى أى مستوى ، فإن هذا هو ماهدفت إليه جهود السلف من علماء العربية ، فقد اعتنوا عناية كبيرة بكل ما يتصل باللغة من قريب أو من بعيد ، وذلك منذ بدأ اهتمامهم يتجه إلى المحافظة على القرآن الكريم ،دستور العربية الخالد ، فإذا به منطلق العقل العربى إلى دراسة نصوص اللغة ، ومتنها ، وقواعدها النحوية ، والصرفية ، والصوتية ، والبلاغية . وإذا بالعلماء منذ عهد مبكر يبدأون فى اللمسات الأولى فى العلوم العربية ، استهدافاً لخدمة النص الكريم .

ولعل أقدم ما وصلنا من ملامح هذا النشاط وأخباره ماروى عن عبدالله بن عباس من أنه كان يتصدى فى المسجد لتفسير القرآن ، وكان الناس يلقون إليه بأسئلتهم ، وهو يجيب عنها إجابة العالم المتثبت والراوية المحيط . ويذكر التاريخ من أخبار ذلك العهد ما أطلق عليه « سؤالات نافع ابن الأزرق » التى كانت تدور حول تفسير بعض الألفاظ من كتاب الله ، وقد رواها السيوطى فى (الإتقان)[1] . ثم كان نهوض أبى الأسود الدؤلى إلى وضع قواعد النحو العربى ، بتوجيه من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، أو غيره ، حين رأى تفشى اللحن على ألسنة الناس[2] .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ص ١٢٠ وما بعدها ـ الطبعة الثانية ١٩٣٥ .

(٢) أنظر : إنباه الرواة على أنباه النحاة ـ للوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ـ جـ ١ ص ١٠ وما بعدها ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

أى أن بداية الدرس اللغوى كانت لغوية نحوية . وقد تولى العلماء من التابعين وتلاميذهم تعميق محاولة أبى الأسود والزادة فى ذلك العهد ، ولمعت أسماء كبيرة . فى مقدمتها عبد الرحمن هرمز ، ويونس بن حبيب ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى ، كما يعد بين لغوى ذلك العهد قراء القرآن ، ورواة قراءاته .

والواقع أن هذا الجيل ، على الرغم من أنه كان حافلا بالكثير من الموالى غير العرب ، قد حمل أمانة القرآن والعربية حملا عربياً خالصاً ، إذ أن العروبة كانت تياراً استوعب كل الموجات الداخلة فى المجتمع .

ومن عباقرة هذه المرحلة الأولى فى الدرس اللغوى الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) وتلميذه عمر بن قنبر ، الملقب بسيبويه (ت ١٨٠ هـ) وكلاهما يعد نموذجاً للثقافة العربية الجامعة ، فقد كانت شخصية العالم آنذاك لا تكتمل إلا بأن يأخذ نصيبا من كل العلوم ، فيكون لغويا ، وراوية ، ونحويا ، وأديبا ، وقارئا ، وكذلك كان الخليل لغويا ، نحويا ، صوتيا ، رياضيا ، موسيقيا ، شاعرا ، كما كان سيبويه لغويا نحويا صوتيا .

وتتمثل فى الدرس اللغوى فى أقدم وثائق ذلك العصر ، كتاب سيبويه ، تلك الثقافة الجامعة ، التى تمزج الرواية بنقد النص ، بالقاعدة النحوية ، بالعلاج الاشتقاقى ، بالتحليل الصوتى .

وتأتى بعد ذلك المرحلة الثانية للدرس اللغوى ، وتبدأ مع منتصف القرن الرابع تقريبا ، وفيها يخرج ابن جنى (توفى ٣٩٢ هـ) على الناس بكتابه

(الخصائص)[١] ، وهو كتاب فى فقه العربية ، وقضاياها العامة ، كما يؤلف كتابا فى علم الأصوات يسميه (سر صناعة الإعراب)[٢] . إلى جانب كتب أخرى كثيرة .

ونكاد نجزم بأن الدرس اللغوى قد بلغ القمة بهذين العملين الكبيرين، بالإضافة إلى أعمال أخرى لغير ابن جنى - من العلماء .

وتأتى المرحلة الثالثة ، أو الباب الثالث من الدرس اللغوى ، وأعنى به النشاط المعجمى ، الذى وضع الخليل بن أحمد على أرجح الأقوال نواته الأولى بتأليف معجم (العين) على أساس صوتى ، فإذا بالقرن الرابع وما تلاه يشهد نهضة فى وضع المعاجم على اختلاف مناهجها، ويتألق جهد العلماء فى جمع اللغة، وتصنيف مادتها ، وتعريف ألفاظها ، حتى كان معجم (لسان العرب) لابن منظور المصرى قمة المعاجم ، وقد توفى مؤلفه عام (٧١١هـ) . وبعد ماجاء بعده ، مثل القاموس المحيط ، من قبيل متن اللغة ، فقد ازدهر بعد ذلك فن المتون والحواشى ، والتعليقات والتقريرات .

ولا شك أن هذه الإلمامة السريعة بمراحل تاريخ الدراسة اللغوية ، لا تستطيع أن تتعرض لكل الأعمال اللغوية ، ولا لكل مؤلفيها ، ولا الدراسة التيارات المؤثرة فى ثقافة الأجيال ، كتيار الثقافة اليونانية ، أو الفارسية ، فلذلك كله كتب تخصصت فى علاجه .

وبوسعنا الآن أن نقفز عبر القرون إلى العصر الحديث ، الذى شهد نهضة ثقافية هائلة ، كان من أبرز عواملها انفتاح عقلية الباحثين على مناهج

---

(١) حققه الشيخ محمد على النجار ، ونشرته دار الكتب فى ثلاثة أجزاء : ابتداء من عام ١٩٥٢

(٢) حقيق الشيخ محمد الزفزاف ، والأساتذة ابراهيم مصطفى ، ومصطفى السقا ، وعبد الله أمين ، ونشر الجزء الأول منه ، وماتزال بقيته رهن النشر بعد وفاة المحقق الأستاذ السقا.

البحث التى اهتدى إليها العلماء فى أوربا . وطبقوها ، كما كانت أعمال المستشرقين الأوروبيين من عوامل التأثير فى توجيه أجيال العلماء إلى معالجة قضايا اللغة ، وكنوز التراث بعقلية جديدة .

ومن المؤكد أن الحركة الاستشراقية كانت تختلط أحيانا دوافعها النبيلة بأهداف الاستعمار ، الذى يسخرها لتحقيق مخططاته ، ولكن كثيراً من آثار المستشرقين يعتبر الآن من أثمن ماقدمت أوربا لهذا الشرق الإسلامى ، الذى لقنها الدروس الأولى فى الحضارة والتقدم .

ويعتبر الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس بحق رائد الدراسات اللغوية الحديثة فى مجال اللغة العربية ، وهو مثال فريد للقدرة على المزج بين احترام المنهج الحديث ، وتقديس التراث ، فى كل الأعمال العلمية التى قدمها ، وهى تتناول أكثر مجالات علم اللغة الحديث ، ثم توالى من بعده تلاميذه وغيرهم فى كل معاهد العلم . وهم الآن كثيرون والحمد لله[١] .

ثانيا : فى أوربا :

وهنا ينبغى أن نلقى نظرة على تاريخ علم اللغة الحديث ، الذى يعتبر أوربى النشأة ، وربما كان من المناسب أن نلجأ إلى خير من يتحدث عن هذا الجانب ، العالم اللغوى فرديناند دوسوسور ، أشهر اللغويين المحدثين على الإطلاق (١٨٥٧ — ١٩١٣م) ، وهو يرى أن هذا العلم الذى يدرس الأحداث

(١) ممن ينبغى أن نشير إليهم فى هذا الصدد الأستاذ عبد الحميد الدواخلى ، والأساتذة الدكاترة تمام حسان ، وعبد الرحمن أيوب ، وكمال بشر من أساتذة كلية دار العلوم رحسن عون من جامعة الاسكندرية ، كما يعنى بالدراسات اللغوية في العالم العربى أساتذة كبار ، فى مقدمتهم الدكتور محمد المبارك ؛ فى سوريا ، والدكتور ابراهيم السامرائى ، فى العراق ، والدكتور صبحى الصالح ، فى لبنان ، وإلى جانبهم جيل كبير من الشباب يعمل الآن فى الجامعات العربية المختلفة .

اللغوية مر فى الغرب بثلاث مراحل متوالية ، قبل أن يهتدى أساسا إلى موضوعه الدقيق :

المرحلة الأولى : أطلق عليه فيها (علم النحو) ، وقد بدأ هذه الدراسة الإغريق وحملها من بعدهم بصفة رئيسية الفرنسيون . وقد كان قائما على أساس المنطق ، دون أية نظرة علمية تهتم باللغة فى ذاتها . فقد كان يهدف فقط إلى تنظيم قواعد تميز بين الصيغ الصحيحة وغير الصحيحة ، أى : أنه نظام يصف الواقع ، عار عن الملاحظة الخالصة ، ضيق الأفق إلى حد بعيد .

ثم ظهر بعد ذلك علم (الفيلولوجيا ـ أو فقه اللغة) ، وقد كان معروفا من قبل فى الاسكندرية . حيث كانت هنالك مدرسة (فيلولوجية) ، بيد أن هذا المصطلح بنسب بخاصة إلى الحركة العلمية التى أنشأها فردريك أوجست وولف ، ابتداء من عام ١٧٧٧م ، واستمر نموها تحت رعايته .

لم تكن اللغة هى الموضوع الوحيد للفيلولوجيا . فقد كانت مهمة هذا العلم الأولى أن يوثق النصوص ، وينشرها ، ويعلق عليها . وقد قادت هذه الدراسة الأولى إلى الاهتمام أيضا بالتاريخ الأدبى ، وبالأخلاق ، وبالأنظمة . . . الخ . فكان علم الفيلولوجيا يتناول كل هذه الموضوعات بمنهجه الخاص ، المتمثل فى النقد ، فإذا ما صادف مسائل لغوية تناولها فى إطار مقارنة النصوص من عصور مختلفة ، وتحديد اللغة الخاصة بكل مؤلف ، وإحصاء المخطوطات التى يعثر عليها ، محررة بلغة قديمة أو غامضة . ولا ريب أن هذه البحوث قد مهدت لعلم اللغة التاريخى .

أما المرحلة الثالثة فقد بدأت عندما اكتشف إمكان مقارنة اللغات فيما بينها ، وكان هذا هو أساس علم الفيلولوجيا المقارنة ، أو (النحو المقارن

Grammaire comparée)، وقد ظهر كتاب (نظام تصريف السنسكريتية Système de la conjugaison du Sanscrite عام ١٨١٦م، ودرس فيه مؤلفه فرانز بوب Franz Bopp — العلاقات التى تربط السنسكريتية بالجرمانية، والإغريقية، واللاتينية . . . الخ .

لم يكن بوب هو أول من لاحظ هذه الوشائج؛ ولا أول من أكد أن هذه اللغات جميعا تنتمى إلى أسرة واحدة؛ فقد كان هذا معروفا من قبله، ولاسيما على يد المستشرق الانجليزى و . جونس W. Jones (ت ١٧٩٤م) . على أن عدة شواهد مفردة لا تدل على أن الناس قد أدركوا عام ١٨١٦ بصفة عامة معنى هذه الحقيقة ولا أهميتها، وإذن، فلم يكن لبوب وحده الفضل فى اكتشاف أن السنسكريتية قريبة لبعض لغات أوربا وآسيا، ولكنه أدرك أن العلاقات بين اللغات المتقاربة يمكن أن تكون مادةعلم قائم بذاته.

فكل ما استطاع بوب تحقيقه هو إيضاح لغة بأخرى، وتفسير صيغ لغة بصيغ أخرى، ومن المشكوك فيه أن يكون قد استطاع إنشاء هذا العلم، وعلى الأقل بهذه السرعة، لو لم تكن اللغة السنسكريتية قد اكتشفت، فقد كانت هذه اللغة شاهداً ثالثاً إلى جوار الإغريقية، واللاتينية، فقدمت له أساس دراسة أرحب وأصلب .

وقد كان من أقطاب مدرسة بوب وأواخرهم ثلاثة كبارهم: ماكس مولر Max Miiler وج . كيرتيوس G. Curtius، وأوجست شليشر Aug. Schlecher . ولكن هذه المدرسة التى كان لها فضل لاينازع فى فتح مجال دراسة خصب وجديد ـ لم تصل إلى تأسيس علم اللغة بالمعنى الصحيح، فهى لم تعن باستنباط طبيعة موضوع دراستها، وبدون هذا الاستنباط يعجز أى علم عن أن يرسم منهجه .

وما إن وافى عام ١٨٧٠ حتى طرح سؤال عن الشروط التى ينبغى أن تتوفر لحياة اللغات ؟ فقد أدرك العلماء أن العلاقات التى توجد بينها ليست سوى جوانب للظاهرة اللغوية ، التى تعتبر الدراسة المقارنة مجرد وسيلة ومنهج لإعادة تنظيم أحداثها .

أما علم اللغة بالمعنى الدقيق ، وهو الذى وضع الدراسات المقارنة فى مكانها الصحيح ـ فقد نشأ من دراسة اللغات الرومانية ، واللغات الجرمانية على يد عالم اللغات الرومانية ديز Dies فى كتابه (نحو اللغات الرومانية Grammaire des Langues Romanes) وقد نشر فى أعوام ١٨٣٦ — ١٨٣٨ والعالم الأمريكى وايتنى Whitney مؤلف كتاب حياة اللغة Vie du Langage عام ١٨٧٥ . وقد عقد لواء الريادة فى هذه الدراسات لمجموعة من العلماء الألمان من أمثال برجمان Brugmann ، واستوف Osthoff وبراون Braune وسيفرس Sievers وعالم السلافية لسيكيان Leskien .

فإلى هؤلاء جميعاً يرجع الفضل فى وضع نتائج المقارنة فى أفقها التاريخى ، ومن ثم ربط الأحداث اللغوية فى نسقها الطبيعى ، وقد أدى عملهم إلى أننا لم نعد نرى من المحتمل أن تشتمل اللغة على نظام يتطور وينمو من تلقاء ذاته ، وإنما يعود التطور إلى الروح الجماعية اللغوية ، ثم إننا أصبحنا ندرك إلى أى مدى كانت الأفكار السابقة للفيلولوجيا والنحو المقارن مخطئة وناقصة[1] .

ومع ذلك فإن أعمال هذه المدرسة لم تتسع لمسائل العلم بأكملها ، فمازالت أمور كثيرة غامضة ، إلى أن يجىء فرديناند دوسوسور ، ليفتح آفاق البحث.

---

(١) سوسور ص ١٣ وما بعدها Cours de Linguistique générale

ويثير مشكلات- العلم بصورة منهجية فى كل ما قدم من دراسات وبحوث ، وبخاصة فى كتابه الممتاز (محاضرات فى علم اللغة العام) الذى يعد مرجعا هاما لكثير من أفكار علم اللغة الحديث .

ولقد تناول دوردوسور تلميذه أنطوان مييه فى كتابه الكبير (علم اللغة التاريخى ، وعلم اللغة العام Linguistique historique et Linguistiqne-générale)ـ فقد تحدث عن أستاذه فى مقال طويل بعنوان (فرديناند دوسوسور) وبين موقعه من ريادة هذا العلم ، وفضله على سابقيه ، وعلى لاحقيه أيضا ، من الأجيال التى تتلمذت عليه .

يقول فى إحدى فقرات هذا المقال : « ولو أننا اقتصرنا فى الحديث على اللغويين ٠ فإن لدينا دوفو Duvau ، وج . مول Mole ، وم . جرامونت M· grammont ، ودوتان Dottan ، وبوابيه Boyer ، وكاتب هذه السطور (مييه Meillet) ـ فهؤلاء جميعا قد تأثروا بنشاطه ، فقد كان دوسوسور أستاذاً حقا . ولكى يصبح المرء أستاذا لا يكفى أن يقرأ أمام مستمعيه أحد الكتب قراءة دقيقة وسريعة ، بل يجب أن تكون له نظرية ومنهج ، وأن يقدم العلم مع نبرة شخصية . ولقد كان للدروس الخاصة التى يتلقاها الطالب منه قيمة عامة ، فقد كانت تدفع إلى العمل ، وتصوغ العقل ، وتثبت فى الذاكرة مرشداً ونموذجا .

كان يحبب الدارسين فى العلم ، ويبرز قيمته ، وكان فكره الشاعر يضفى على عرضه لمحة بيانية رائعة لا يمكن أن تنسى . ولقد كنا نتخيل دائما خلف التفضيلات التى يذكرها عالما من الأفكار العامة ، ومن المشاعر أيضا .

لقد كان شخصه يحبب المرء فى العلم ، وكان المرء يدهش حين يرى هذه العين الزرقاء المليئة بالأسرار تلمح الواقع بمنتهى الدقة ، وكان صوته المتوافق الهادىء ينزع عن الأحداث النحوية جفافها وقسوتها»[١].

والواقع أن أعمال دوسوسور العلمية كانت تدور حول الدراسات المقارنة ، ومنها استطاع أن يقدم أفكاره عن علم اللغة العام ، أى : أنه بدأ تاريخيا ، وانتهى وصفيا ، فأضفى على علم اللغة الكثير من الموضوعية رغم أنه لم يعمر طويلا ، فقد مات فى سن الخامسة والخمسين .

ويرى ماريوباى أن كتاب دوسوسور عن علم اللغة العام ، هو أول كتاب رسم الأسس الدقيقة لعلم اللغة الوصفى باعتباره فرعاً من فروع اللغة. وقد نشر الكتاب بعد موت مؤلفه بأربع سنوات ، عام ١٩١٦[٢] إلا أن ماريو يذهب إلى أن لعلم اللغة العام فروعا ثلاثة هى :

١ — علم اللغة التاريخى .

٢ — علم اللغة الوصفى .

٣ — علم اللغة الجغرافى .

ويكاد تأليفه لكتابه (أسس علم اللغة) يستهدف تأكيد هذا الفرع الأخير ، وإثبات أهميته ، ولعله رأى أن تناول الباحثين له لم يكن على مستوى الاهتمام الجدير به ، فركز الجزء الأكبر من عمله لهذا الغرض ، وربما كان من المفيد أن نلم برأيه فى منهج كل فرع من هذه الفروع الثلاثة، لندرك الفرق بينها على نحو تفصيلى ، فهو يقول عن علم اللغة الوصفى :

---

(١) أنظر المقال فى الكتاب المذكور حـ ٢ ص ١٧٤ — ١٨٣ — طبعة ١٩٥٣ .
(٢) أسس علم اللغة ص ٢٣٥ .

« حينما يستخدم الناس كلمة (علم اللغة) من غير إضافة كاشفة ، فإنهم يعنون غالبا : (علم اللغة الوصفى أو التركيبى). فهو أساس الدراسات اللغوية ، ويتمثل إسهامه الكبير فى النواحى الصوتية والفونيمية ، التى تعد أكثر فروع اللغة موضوعية ، وأقربها إلى المناهج العلمية ... ومايزال حقل الدراسات اللغوية الوصفية المثمرة بكراً حتى الآن ، وبخاصة فى مجال الدراسة الوصفية للغات ، كل على حدة ، وفى مجال تنقية الوسائل المستعملة فى البحث ، كالوسائل الآلية ، والميكانيكية ، من أجل تعليم اللغات دراستها ... ومن مجالاته أيضا وضع أطالس لغوية جديدة ، وتهذيب الأطالس الموجودة » .

وأما علم اللغة التاريخى فهو يهتم بماضى اللغة ؛ « وإن مانستخلصه من ماضى اللغة وتطورها التاريخى لايمكن استخدامه فى المجال التطبيقى العملى لتعليم اللغة وتعليمها ، كل مايمكن أن يقال هو أن الدروس المستفادة من الماضى ربما أفادت فى فهم مايحدث الآن ، أو ماسيحدث فى المستقبل » .

« أما ميدان علم اللغة الجغرافى فهو أكثر الميادين خصباً ، لأنه أقل الفروع حظاً من عناية الباحثين ، ونصيباً من العمل المنظم ، وإن مباحث علم اللغة الجغرافى قد حكم عليها علماء اللغة المتخصصون بأنها فرع خادم للفرعين الآخرين ، بدلا من أن يعالجوها بطريقة أساسية مستقلة... وقد أدى استخدام هذا المنهج خلال الحرب العالمية الثانية إلى وضع المناهج الدراسية العملية لتعليم اللغات لأفراد القوات المسلحة ، وقد كانت الحكومة مهتمة بالناحية العملية ، لا النظرية أو التاريخية للغة ، لقد كانت تريد أن تعرف أى اللغات تستعمل فى العالم ، ومن يتكلم بها ، وكم عدد المتكلمين ، وكيف تستعمل؟ ».

ثم يقول : « إن الفروع الثلاثة المتآخية سوف تحقق أحسن النتائج ،

إذا سمح لها أن تسير جنبا إلى جنب كفروع منفصلة »[1].

والواقع أن ماريوباى يبدو لنا فى مواضع كثيرة من كتابه شديد الحفاوة بهذا الفرع العملى من علم اللغة ، حتى لنكاد نظن أنه هو الذى أبدع فكرته ، وشرع منهاجه ، ولكن النظرة السريعة فى كتاب دوسوسور ترينا أنه قد خصص لعلاج مسائل هذا العلم القسم الرابع من كتابه : (محاضرات فى علم اللغة العام) ، فقد جعل عنوانه : - **Linguistique Géographique** - أى : علم اللغة الجغرافى ، وكان حديثه فى هذا القسم عن تنوع اللغات ، وتعقد التنوع الجغرافى ، وتعايش اللغات فى بقعة معينة ، وعن اللغات الأدبية ، والرطانات المحلية ، ثم تحدث عن أسباب التنوع الجغرافى ، والزمن عنصر أساسى فيه ، وعن تأثير الزمن فى الرقعة الممتدة ، وعن أن اللهجات ليست لها حدود طبيعية ، وكذلك اللغات ، ثم تناول فى الفصل الأخير مسألة انتشار الموجات اللغوية وخصائص هذا الانتشار .

ومعنى ذلك أن دوسوسور قد وضع المنهاج ، النظرى على الأقل ، لما سماه علم اللغة الجغرافى ، بحيث يمكن اعتبار كل من جاءوا بعده امتداداً له فى سائر الأوطان ، وحسبنا أن نلاحظ فى كتابه هذا التتابع الرائع فى معالجته للفروع الثلاثة لعلم اللغة العام ، وهى :

١ — علم اللغة الوصفى **Linguistique Synchronique**

٢ — علم اللغة التاريخى **Linguistque Diachronique**

٣ — علم اللغة الجغرافى **Linguistique Géogrephique**

وقد لوحظ على تأريخ الأوربيين للدراسات اللغوية أنهم يقتصرون فى سرده على جهودهم ، بدءاً من أقدم العصور ، حتى عصرنا الحاضر ، دون أن

(١) أسس علم اللغة ص ٢٣٧ ومابعدها — بتصرف . ولسوف نعود إلى الحديث عن علم اللغة الجغرافى فيما بعد .

يعرج أحدهم على ماقدم العلماء العرب من جهود فذة فى هذا الميدان .

ولو أننا أردنا أن نعلل لهذا المسلك تعليلا يقدم حسن الظن بهم ، فربما لم نجد سوى أنهم يؤرخون لعلم اللغة التاريخى المرتبط بالمقارنة بين اللغات المختلفة ، وهو علم أوربى النشأة قطعاً . بيد أن أوربيا آخر كانت له نظرة أشمل وأكثر إنصافا ، هو المستشرق الألمانى (ا . شاده) فقد وجدناه يتجه إلى الاعتراف بجهود العلماء العرب ، وإسهامهم فى الحضارة الإنسانية بما قدموا من دراسات لغوية لم يسبقوا إليها ، فى ميدان النحو ، والصرف ، والأصوات ، والمعاجم ، وقد خص بالدراسة جانب الأصوات فى بحث بعنوان: (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) ـ انتهى فيه إلى أن من الصعب إضافة أى تعديل على ماقدم سيبويه من تحديدات علمية لكل ماتعرض لدراسته من الظواهر الصوتية ، اللهم فيما عدا موضوع الحنجرة التى لم يعرف العرب لها وظيفة صوتية ، فجعلوها جزءا من الحلق[1] .

ومع ذلك فإن أحداً لاينكر أن التناول الحديث للغة قد خضع للمناهج الأوربية ، واتبع طريقتها فى البحث ، كما سبق أن اتبع الأوربيون مناهج المسلمين ، إبان عصر النهضة ، حتى استطاعوا أن يقفوا على أقدامهم ، وأن يستقلوا بوجهات نظرهم فى مختلف العلوم ، فكانت الحضارة الأوربية الحديثة نتاج الامتزاج التاريخى بين عطاء العقل الإسلامى ، والعقل الأوربى .

---

(١) توجد نسخة خاصة من هذا البحث لدى المؤلف .